كتاب الأوراق

ونظره فى كتابة التاريخ

بقلم محمد طه الحاجرى

فى ذمة الأدباء من أهل هذه اللغة الكريمة للأدب العربى من ناحية ، وللروح العلمية السائدة من ناحية أخرى ، دين لامعدل لهم عن أدائه ، ولامترخص لهم فى الوفاء به ، اذ كان مرجع الأمر فيه شخصيتهم المعنوية التى يظهرون بها ، والى كيانهم الأدبى الذى لاحياة لهم من دونه ، والى شعورهم بالروح العلمية المتغلغلة فى كل عناصر الحياة ومظاهر الوجود . ثم هو متصل فوق هذا بالقومية التى نفاخر بها ونحرص على توثيق عراها وتقوية أسبابها . ذلك هو العناية بتاريخ هذا الأدب الذى تعده خمسة عشر قرناً عناية تظهر ، فيما أحسب ، فى كتابة هذا التاريخ ، وإقامته على أسس قوية من أساليب البحث العلمى ، ومناهج النقد الأدبى ، والتبسط فى ذلك بما يطوعه الجهد الواسع ، والنفس الممتد ، والعزيمة القوية ، والروح العلمية المتبصرة ، والرغبة المتوثبة فى إقامة كياننا المصرى على أقوى ما تفاخر به الشعوب وتعتمد عليه الأمم ، فما أحسب أن أدب أمة من الأمم بلغ من سعة المادة ، وامتداد العمر ، ومجاراة الحياة ، ومساوقة الزمن مابلغه الأدب العربى ، ثم لا أحسب أن أدب أمة من الأمم

الشاهدين ، فحاولت أن أقنعه بأنه وإن يكن قد ظن فى نفسه الحكمة ، إلا أنه لم يكن بالحكيم الحق ، فأدى به ذلك الى الغضب منى ، وشاطره فى غضبه كثيرون ممن شهدوا الحوار وسمعوا الحديث ، فغادرته قائلاً فى نفسى : إنى وإن كنت أسلم أن كلينا لا يدرى شيئاً عن الخير والجمال . فانني أفضل منه حالاً ، لأنه يدعى العلم وهو لا يعلم شيئاً . وأما أنا فلا أدرى ولا أزعم أننى أدرى — ولعلى بهذا أفضله قليلاً . ثم قصدت الى آخر ، وكان أعرض من سابقه دعوى فى الفلسفة ، فانتهيت معه الى النتيجة نفسها ، وعادانى هو الآخر ، وأيده فى موقفه عدد كبير

يتبع

زكى نجيب محمود

منى بما منى به هذا الأدب من إغفال أهله أن يقيموه على أسس هذا العصر .

فتاريخ الأدب عندنا علم حديث النشأة ، غض التكوين ، لايكاد يرجع ميلاده الى ماوراء الجامعة الأولى ، ولايكاد يثبت فى طريقه لما يحتوشه من أسباب الضعف ، ومايعوزه من عناصر الحياة ، ومايحيط به من شتى العوامل التى تثبطه وتصده وتحمل عليه بما لايحتمله الجلد القوى بله الضعيف الواهن ، وإنما هى القوة الذاتية التى تمسكه ، فمن أقدس الواجبات علينا لقاءه أن نمكن له فى الحياة ، وأن نوفر له العناصر التى يقوم بها كيانه الصحيح ، وهى تتلخص فى أمرين لا بد منهما : تقرير الأسلوب العلمى ، واستجماع المادة التى يتكون منها تاريخ الأدب العربى .

أما أول الأمرين فقد كفانا مؤونته الأساتذة الأجلاء الذين شقوا لنا ذلك الطريق ، ووضعوا أمامنا معالم البحث العلمى ، وبصرونا بمناهج النقد والتمحيص والموازنة وما الى ذلك .

أما المادة التاريخية فهى العنصر الأول فى كتابة التاريخ ، وكلما توفرت لدى الباحث ، واتسعت نواحيها ، وتنوعت أبوابها ، وتعددت مذاهبها ، وكثرت الأيدى التى تقدمها ، وأخذت تضرب فى شتى جهات الحياة ، وتتناول الأطراف المختلفة ، كان المؤرخ أكثر توفراً على بحثه ، واستضاء أمامه العصر الذى يؤرخه ، فأخذ يصفه وصفاً أشبه باليقين ، ويقرر التيارات الأدبية فيه تقريراً أقرب الى الحقيقة ، بعد أن يكون قد نظر فى أجزاء هذه المادة نظر الناقد البصير ، فجعل يوازن بينها ، ويقارن بين مختلف أجزائها ، وليكن هناك مايكون من التناقض فى الروايات ، والتضارب بين الأقوال فذلك ، فيما أحسب ، أدعى الى استبطان الحقيقة المستكنة فى ثنايا هذه الاختلافات ، وأقرب بالباحث الى ثلج الصدر وبرد اليقين .

والأدب العربى يملك من هذه الناحية ثروة طائلة بالرغم من عوادى الزمن ، والنكبات التى أصابت المكتبة العربية فى مناسبات مختلفة ، ولكنها ثروة ضائعة لا تجد من يستغلها إلا قليلاً ، إذ لم يقدر لها من ينشرها من قبورها ، ويبعث فيها الحياة التى تعرفها ، حتى يستطاع استغلالها ، وإنما هى جهود ضئيلة بالنسبة الى عظم العمل وجلال التبعة .

ولقد تقدمتنا الفرنجة فى هذا السبيل حتى أخجلونا وأبهظوا عاتقنا بفضلهم ، وضربوا لنا خير الأمثال بما نشروا من كتب ، وما قاموا به عليها من عناية بتصحيحها وفهرستها ومقارنتها ، فى تواضع العالم المخلص ، وهدوء الباحث المستبصر . فدلوا بهذا على روح علمية ثابتة الأساس ، ومعرفة حكيمة بطرائق البحث الصحيح .

لست الآن بصدد البحث عن جهود المستشرقين العظيمة المتوالية فى سبيل الأدب العربى ، وإنما سبيلى الآن أن أتحدث عن كتاب من خيرة الكتب التى كادت تتلاشى فى غمار القرون وثنايا النسيان وعوادى الاهمال ، فنشره مستشرق ناشىء ، هو المستر هيورث دن ، وخلع عليه هذا المظهر الذى تتجلى عليه الروح العلمية فى بهائها ورونقها وجلالها . ذلك هو كتاب الأوراق لأبى بكر محمد بن يحيى الصولى المتوفى سنة ٣٣٥ .

والصولى إمام من خير أئمة الأدب ، وكاتب من أفضل الكتاب الذين تزدهر بهم تلك الفترة من الزمن ، وعالم ضليع غزير المادة جيد الرواية ، يروى عنه أبو الفرج كثيراً فى أغانيه ، وأستاذ جليل تخرج عليه كثير من رجالات ذلك العصر مثل أبى عبد الله محمد بن عمران المرزبانى ، وهمك من رجل ، وناهيك من عالم . وقد ترك ثروة كبيرة من الكتب الجليلة فى قيمتها الأدبية والتاريخية ، نقرأ بياناتها فى كتب الفهارس ، ثم تنطوى على أنفسنا حسرة وأسفاً على ذلك الكنز الذى طاحت به الطوائح . ولا أحسب أنه قد بقى لنا منه إلا هذا الكتاب الذى عنى به المستر دن هذه العناية ، وكتاب آخر فى أدب الكتاب نشره منذ عشر سنوات العلامة الأثرى المرحوم على بهجت . وكان كتاب الأوراق فى حكم تلك الكتب التى لانعلم شيئاً عن مصيرها ، لولا تلك الروح العلمية المتوثبة التى حفزت ذلك الشاب العالم على إخراجه للناس فى ثوب علمى جليل ، ومعاناة تحقيقه وتمحيصه ومقارنة رواياته ، فأضاف بذلك الى المادة التاريخية لعصر بنى العباس ماهو جدير أن يضىء الطريق أمام الباحث المؤرخ فى كثير من مجاهل هذا العصر ومسائله الملتوية الغامضة .

وقد نجد فى ترجمة الصولى كلاماً مختلف الأطراف بين مدح وقدح ، وتقدير وتشهير ، ولكنا لانشك ، إذ نقرأ كتابه « الأوراق » أنه كان رجلاً عالماً يمثل الروح العلمية خير تمثيل ، ويضعها فوق كل اعتبار ، متثبتاً على طريقة عصره فى النقد والرواية ، لايميل مع الهوى ، ولايذهب مع الخواطر ، ولايقف دون النقد والمقارنة والتمحيص .

عرض فى أثناء حديثه عن أحمد بن يوسف الى رواية تحدث ابن طيفور عنه بها ، وخلط فيها ، فلم يدعها الصولى تمر دون أن ينقدها بما طوع له علمه الغزير وروحه العلمية القوية ، ثم كتب هذه العبارة التى نثبتها هنا لتدل على تثبته العلمى من ناحية ، وعلى مظهر من مظاهر الروح العلمية فى ذلك العصر ، من ناحية أخرى .

« وقد رأيته (يعنى ابن طيفور) بالبصرة سنة سبع وسبعين ومائتين ، وقدمها إلى أحمد بن على المادرانى ، وكتبت عنه مجلسين أو ثلاثة ، فلما رأيته صحفياً لم أرعنده ما أريد تركته ، ويعز على أن أذكر أحداً من أهل الأدب بسوء وأن أستخفه ، ولكن لابد من أن نعطى العلم حقه ، ونضع الحق موضعه »

أفرأيت إلى أى حد من الاجلال والتقدير كان نظر الرجل إلى العلم والحقيقة والأدب ؟

يمثل لنا هذا الخبر الصغير الذى ينبغى أن يرجع اليه القارىء فى الكتاب صفتين من أبرز صفات الصولى وكثير من علماء ذلك العصر : وهما سعة المادة ، والتثبت فى الرواية . وعلى هاتين الصفتين قامت عظمة السلف ، وعليهما يجب أن تكون الدعائم التى نقيم عليها أبحاثنا العلمية فى تاريخ الأدب ، فلن تغنينا كل أساليب البحث ومناهج النقد ، عن سعة المادة وتوفر المصادر ، والتقصى فيها بكل ما يتسع له الجهد ويطوعه الامكان .

فاذا كنا نحتفى بكتاب الأوراق ، فانما ذلك لأنه صورة لتلك الشخصية العظيمة فى تاريخ الأدب العربى ، ومثال من خير الأمثلة عن الطريقة الأدبية لأسلافنا فى معاناة الرواية ونقدها وتمحيصها . والتوفر على الجمع والمقارنة ، ثم هو فوق هذ كله ، زيادة فى المادة التاريخية ، وتوطيد لأسس البحث العلمى ، بالنسبة إلى عصر من أشد عصور الأدب العربى اختلاطاً واضطراباً ، وأغصها بالتيارات المختلفة ، والنزعات المتباينة المتشابكة .

وهذا القسم الذى نشر من كتاب الأوراق خاص بأخبار الشعراء المعاصرين ، وقد سلك الصولى فى تصنيفهم مسلكاً حسناً جديراً بالتنويه ، ذلك أنه راعى فى ذلك أسرهم : فذكر أولاً

أسرة اللاحقيين ، ثم أسرة احمد بن يوسف وزير المأمون ، ثم أسرة السلمى أشجع بن عمرو . وهذا نحو جديد فى التصنيف الأدبى جدير بأن يتنبط به الذين يتتبعون الصفات الوراثية المشتركة ، والذين يرون فى الأدب صوراً لقوانين الوراثة المقررة .

وإذا كانت هذه طريقته فى عرض الشعراء ، لم يتقيد بذكر المشهورين منهم ، ولا حبس نفسه عليهم ، وقد صرح هو نفسه بهذا الاتجاه فى آخر كتابه فقال : « قد جئت بأكثر أشعار هؤلاء إذ كانوا شعراء ظرافاً كتاباً لا يعرفهم الناس ، ومن عرفهم لا يعرف أخبارهم . . . وانما أستقصى أشعار من لا يعرفون وأخبارهم » وكذلك كان الصولى ، فقد انطلق فى ذكر هؤلاء الشعراء المغمورين ، وسرد أخبارهم ورواية أقوالهم وأشعارهم ، مما هو جدير بالرواية ، حقيق أن ننعم فيه النظر ، ونستخلص منه كثيراً من الحقائق التاريخية التى قد لا تتضح فى مشاهير الشعراء ، فقد تقيد الشهرة صاحبها بكثير من القيود التقليدية ، وتنشر حوله غشاء مصنوعاً ، حتى يصبح من العصر الذى يعيش فيه ، صورة كثيرة التزوير والتمويه . على حين ينطلق الشاعر المغمور فى سبيله يصور من نفسه وعصره وبيئته ماوسعته الحرية فى التعبير ، والقدرة على التصوير .

ولعل كبار الشعراء هم صور من عبقرياتهم ، أكثر من أن يكونوا صوراً لعصورهم وبيئاتهم ، وما تموج به من شتى النزعات ومختلف الصور والتيارات .

فكتاب الأوراق يضع بين أيدينا إذن مصدراً عظيم الخطر من مصادر التاريخ ، ويبصرنا بكثير من الحالات التى سيطرت على الأدب فى ذلك العصر ، بما يكتبه عن أولئك الذين انطبعوا بحياتهم ، وصوروها تصويراً حراً طليقاً من قيود الشهرة .

ومن قبل عنى الفضل الضبى بجمع شعر الشعراء المقلين فخدم بذلك الاتجاه التاريخى الذى نتوجه أجل خدمة ، إذ كانت المفضليات أصدق صورة للعصر الجاهلى .

هذه ميزة شديدة الوضوح من ميزات كتاب الأوراق ، لها خطرها فيما نقصد اليه من الدراسة الأدبية . ولست أتعرض الآن لشرح هذا الوجه من الخطورة ، ولعله يتاح لنا فيما بعد أن ندرسه دراسة مفصلة تتسع لها لا تتسع له هذه الكلمة العاجلة .

ومما يستطرف ويلفت النظر فى هذا الكتاب ، أنه يظهرنا على أولية ذلك النوع من الشعر الذى يسميه الفرنسيون الشعر التعليمى La poésie didactique فى الأدب العربى ، فنحن نرى أنه قد بدأ بأبان بن عبد الحميد اللاحقى ، فقد صنع قصيدة سرد فيها أحكام الصيام على نحو ما نعرفه فى منظومات العلوم . والظاهر أن أبان كان مضطلعا بهذا النوع من الشعر ، فقد نظم كذلك كتاب كليلة ودمنة ، وكتاب المنطق ، وكان ذلك فنا طريقاً . وقد ذكر الصولى أنه عاتب البرامكة على قلة عطائهم مع خدمته لهم وموضعه منهم ، فأشار عليه الفضل أن يقول شعره فى هجاء الطالبيين ، فتذمم أبان ، ثم قال قصيدة استطرفها الفضل ، وهى لا شك طريفة . فقد سلك فيها مسلكا عجباً فى الشعر ، إذ أخذ يجادل الطالبيين فى دعواهم جدلا فقهيا بحتا مستندا الى أحكام الوراثة فى الأسلام وما يقرره الشرع فى حالات الحجب والهبة وما إلى ذلك . ولما جاء بهذه الأبيات إلى الفضل قال له : ما يرد اليوم على أمير المؤمنين شىء أعجب اليه من أبياتك .

هذا تاريخ نوع من الشعر كثير الشيوع فى اللغة العربية ، على أن لهذا فيما أحسب ، بعض الدلالات الأخرى على بعض العوامل فى ذلك العصر .

وعقد الصولى فصلا عما روى فى صحة دين أبان ، وعندى أن هذه النصوص التى تروى فى هذا الصدد عظيمة الخطورة فى تحقيق المسألة الدينية فى عصر العباسيين : ذلك الأمر الذى اضطربت فيه الأقوال واشتبهت فيه الظنون ، واختلفت فيه منازع الرأى . ولا يزال فى حاجة إلى التحقيق العلمى القائم على النقول الصحيحة والنقد المنزه البصير .

وبعد فما نستقصى فى بيان قيمة كتاب الأوراق من ناحية التاريخ الأدبى ، وحسبنا أن يكون هذا الكتاب زيادة فى المادة التى ترتكز عليها أبحاثنا ، وأن يكون واضعه أبو بكر الصولى ، وهو من عرفنا ، وأن ينشر نشرا علمياً خالصاً لوجه العلم والأدب . حتى نحتفى به ، ونرحب بظهوره .

محمد طه الحاجرى